الخميــــــس 11-11-2010

1168-فــي شـــــرف صحبـــــة نجيــــب محفــــــوظ

الحلقة التاسعة والأربعون

السبت 8 / 4 / 1995

جمال الغيطانى لم يدخل بعد ، أحسن، لمحته واقفا على باب العمارة وسط الحرس، وصلت فى السادسة والربع، سحبت جمال إلى ناحية لأهمس له وكأننى أبرر حضورى حتى لا يحسبنى متطفلا - قلت: إن الاستاذ قد دعانى للحضور، فما هو دورى بالضبط، قال جمال بطيبة: يبدو أنه من تقاليد هذه المناسبات أن يطلب من الاستاذ أن يقوم بدعوة من يختار من أصدقائه ومحبيه ليشاركوه هذه المناسبة، ويبدو أن هذه تقاليد فرنسية بوجه خاص، قلت إذن هو الذى اختارك واختارنى، قال: نعم، تأكدت وفرحت وعلمت أن توفيق بالداخل ودخلنا، وجدت الاستاذ حليقا، وتوفيق أنيقا، والصالة جاهزة لاستقبال السفير، وكان الاستاذ مرحا خجلا طيبا متواضعا، وحين دخل جمال قال الاستاذ: إذن من الذى فى الخارج لاستقبال السفير، قلنا له: لا أحد، وإنه ليس من الضرورى أن ينتظره أحد، فشوح بيده قائلا "لايصح دا سفير!!" ضحكنا، وتصورت أننا فى بلدنا وأن عمدة بلد مجاور جاء يزور أحد المواطنين البسطاء المعروفين بالطيبة والبركة، فإذا بهذا المواطن يضرب لخمة، وهو لا يعرف أصول استقبال العمد، ويسأل عن مشايخ البلد ليكونوا فى استقبال العمدة، أو يروح يحتمى بالجيران والأحباب ممن يعرفون "فى هذا" الطقس الخاص بزيارة العمد، حضر سلماوى وحضر الباقون، ثم المستشار الثقافى الفرنسى، ومدير المركز الثقافى الفرنسى وزوجاتهما ، وحضر محمد يحيى وحافظ ومعهما باقتان من الورد الجميل، ونظرت إلى يوسف القعيد وقلت له فاتتنا

الأصول نحن فلاحان، أين الورود؟، قال إيش عرّفنا، وحضر السفير.

إنسان رقيق متواضع متحضر بحق، وبدأت مراسم الاحتفال

نادى الأستاذ على الزوجة الفاضلة والبنات الكريمات، وجلسوا فى الصالون الداخلى وظل الاستاذ جالسا والسفير واقفا يقول كلمته التى حضرها بنفسه (هكذا أخبر الأستاذ بعدها) والتى كانت طويلة نسبيا غير ما كنت أتوقع، وكان المترجم قد أعدّ لها ترجمة جاهزة/ أخذ يقرأها على الاستاذ فقرة فقرة.

كانت كلمة السفير من أروع ما سمعت من حيث العاطفة، والتحضر والنقد الأدبى، والإحاطة الانسانية (سوف أحاول الحصول على نصها وإن كنت أفضل أن أعيد روحها حالا من الذاكرة)

تناول السفير "نجيب محفوظ" كرمز، وكمعنى، ممثلا لما هو مصر، ولما هو عصر، وبدا من كلمته أنه قد أحاط بأعماله وكأنه قرأها جميعها، وأظهر كيف أن قارئ نجيب محفوظ، وإن لم يزر القاهرة القديمة خاصة يمكنه أن يشم، أريجها، وأن يلمس بلاط شوارعها وهو يقرأ محفوظ، كما أكد ما سمعته من الطيب صالح من قبل وهو أن العالمية ليست فى أن تتكلم لغة عالمية، ولكن فى أن تتعمق فى موقعك الوطنى، وتلم به، وتبرع فيه وبذلك تساهم فى نسيج العالم كله بتقديم هذه الجزئية بأروع ما تحمل ملتحمة ومتكاملة فى الوجود البشرى بحضوره الشامل المتكون من جمّاع المكونات الوطنيه فى كل أنحاء العالم، وأعجبت بكل ذلك.

ثم السفير إلى مديح جزئية لم أقبلها أرحب بها أبدا من نجيب محفوظ، فذكر بالإطراء الشديد كلمة نجيب محفوظ الأسبوعية فى الأهرام كل خميس، ولا أعرف كيف اعتبرها السفير من أهم ما يميز محفوظ وهو يواكب الأحداث اليومية ويتعاطف مع الناس، وخاصة البسطاء والمتألمين، ليكن، له ما رأى.

ثم أشار السفير إلى معنى الوسام - والأوسمة - وأنها فى ذاتها لا تضيف شيئا لصاحبها إلا أنها تذكره بذاته، وقد تسمح له بشيء من الغرور المشروع، لكن القيمة الحقيقية لوجود انسان مثل نجيب محفوظ هو قدرته على تخطى الوسائل إلى الغايات، فلا السلطة ولا الثروة ولا الشهرة تمثل عنده قيمة فى ذاتها، وإنما تتمثل القيمة فى العقل والمعرفة، وقد كدت لأول وهلة أتصور أنه يشير بذلك إعلاء للموسوعية أو الثقافة بمعناها المعقلن فتحفزت - بداخلى - للرفض، إلا أنه أضاف أنه يعنى بذلك".. القدرة على تحمل مسئولية الحياة على أرض الواقع وسط الناس البسطاء"، أىُّ قمة فى التعبير وأى روعة فى التقدير، شكرا سيادة السفير الجميل.

حين سألت السفير - فيما بعد كلمته - كيف ألّم بنجيب محفوظ

الكاتب والمبدع والروائى والشخصى والإنسان هكذا، وهل قرأ كل أعماله، أجاب أن ماقرأه مترجما كان يكفى، وفرحت به وملت على محمد إبنى وقلت له: الآن يمكن أن أصدقك أن عندهم إسلام أكثر منا.

وكان السفير قد أشار إلى أنه يشرفه أن يمثل بلاده فى هذه الفترة، وأنه هو الذى اقترح إسم نجيب محفوظ لينال هذا الوسام الذى لم ينله عربى من قبل، ورد شيخنا فى كلمة مرتجلة كان أهم ما وعيته منها أنها طمأنتنى إلى دقة ما تلقيته من روح كلمة السفير، قال الأستاذ إن كلمة السفير لم تصدر عن شخص يشغل منصبا رسميا ويؤدى مهمة رسمية، وإنما كانت نابعة من عواطفه النبيلة (وهذا ما أحسست به تماما وإن كنت أقر أننى كنت أعجز عن هذا التعبير) ثم أشار إلى فضل الثقافة الفرنسية عليه من سبيلين: الأول: وهو طريق مباشر نتيجة لقراءته للأدب الفرنسى مترجما ومباشرة (وإن كان قد قرأ قليلا بالفرنسية مثل نانا لأميل زولا، قال لى هذا فيما بعد) والسبيل الثانى عن طريق غير مباشر، لأن كثيرا من اساتذته تربوا فى ربوع فرنسا فنقلوا إليه - إلينا- ما تشبع به وتفتح عليه، وذكر من أمثال هؤلاء الاساتذة مصطفى عبد الرازق وطه حسين وزكى نجيب محمود، أخذت الصور وتبودلت التهانى، وجرت أحاديث جانبية وحضر ريمون الأمريكى ثقيل الظل، وراح يصوِّر، وقال له الاستاذ ألم يشبع صورا، هذه هى الصوره المائة ألف على الاقل، ويحكى الأستاذ - بناء على طلبنا - بعد انصراف السفير وهو يداعب الوسام على صدره عن أول الأوسمة والنياشين، ويذكر بالخير أنه كان فى الأهرام عند بلوغه الخمسين (وأعلم لأول مرة أن مجلة الكاتب أصدرت عددا خاصا بهذه المناسبة، فأنا لم أعرف إلا عدد الهلال الخاص بمناسبة بلوغه الستين) ويقول إن صلاح جاهين كان يعد للاحتفال بهذه المناسبة فى الأهرام إلا أن حسنين هيكل حين علم بذلك قرر أن يقوم الأهرام بهذا التكريم وقدم له كأسا رمزيا. ثم ذكر حصوله على جائزة الدولة التقديرية وكانت قمتها 2500 جنيه، فتقول زوجتة الفاضلة ضاحكة أنها كانت جائزة أدبية فقط لأنها لم تشعر بآثار قيمتها المادية، فيضحك الاستاذ ويقول إنه غير مسئول عن مآل المكافأة، ويضحك، فنضحك.

ويذكر لنا الأستاذ أنه حصل على هذه التقديرية فى نفس السنة التى نالها فيها السنهورى فى العلوم الاجتماعية، وكان ذلك بعد أن ضرب فى مجلس الدولة، وكان عبد الناصر ساعتها فى الخارج، وحين عاد وعلم أن السنهورى أخذها قيل أنه ثار احتج، وقيل أنه كان على وشك إلغائها وسحبها من كل من أخذوها وليس فقط من السنهورى ويعقب محمد سلماوى (وهو ناصرى قح): أنه "شفت الديمقراطية" وينقض يوسف القعيد باعتبار التعليق خيانة لناصريته ويهدده القعيد مازحا أنه سيبلغ الحزب، وأنصرف والأستاذ يرجونى من جديد أن آخذ بالى من حكاية النوم هذه، فأذهب وأرجع له آخر الليل، وأضيف عقارا كنت سمعت أنه استجاب له منذ ثلاثين سنة حين

وصفه له د.منصور فايز، وأعطيه له وأنا على يقين من جدواه لأسباب لا داعى لتفصيلها.

الإثنين

10 / 4 / 1995

ماريوت، الاستاذ مع زكى سالم وحافظ وعادل عزت، ابتداء من اليوم أتصور، أو آمل، أن يكون تسجيل هذه الخواطر - فيما عدا يوم الحرافيش - تسجيلا برقيا، للقطات عابره، سألته عن أخبار النوم قال إنه نجح فى أن ينصرف عن التركيز عليه، وأنه - بالتالى - نام يوما طيبا فى مجموعه، قلت له إن هناك أغنية تساعده على أن يكف عن لعبة القط والفار هذه مع النوم وأن هذه الأغنية تنتهى بأنه "ييجى ما يجيش (ترد المجموعة: ييجى) مايهمنيشى (ييجى)، ويطلب منى أن أقول له بقية الأغنية، وهى لا تقال إلا بنغمتها، فأحاول أن أعدد الإغراءات والصفقات التى كانت ترد تباعا فى الأغنية وهى تقول: ييجى عالماصورة (ييجى) والقط له صورة، (ييجى)، ييجى عالمحطة (ييجى) وادبح له بطه (ييجى).. إلخ، ويضحك الاستاذ ويردد النغمة "ييجي"، وأقول له أن ألأغنية تنتهى بما أوصُى به بعض مرضاى أحيانا، فهى تنتهى قائلة: ييجى ما يجيش، ييجى، ما يهمنيش، ييجى، بس الوله ييجى، وأننى أقول لبعض مرضاى أن عليهم أن يتحُدوا النوم لا أن يستجلبوه وينتظروه سلبيا، وأن يعتبروا أنه ممنوع إلا إن غلبهم فعلا، غصبا عنهم، وأن كثيرين منهم تفيدهم هذه النصيحة، وأذكر للأستاذ كيف أن بعض أقربائى كان ينصحنى وأنا صغير أن أستجلب النوم بأن أصعد درجة درجة - فى خيالى - على سلم إلى السماء لا ينتهى أبدا حتى يغلبنى النوم، ، فيرد قائلا: إنهم كانوا يقولون لنا أيضا: حاول أن تتهجى "تشيكوسلوفاكيا ونضحك.

هذا الرجل الحاضر يبادر بالتقاط المعنى المقابل دائما أبدا

انتبهت أن عادل عزت يعمل فى الطباعة وليس فى النيابة، وجرى حديث عن دور الكمبيوتر فى تطوير الطباعة، والجمع التصويرى، وغير ذلك وقلت للأستاذ إننى جربت الكتابة على الكمبيوتر مباشرة لمدة ست سنوات تقريبا، لكننى عدت إلى القلم منذ بضعة شهور، والآن أستطيع أن أحكم، فسألنى، أيهما أفضل، قلت للكتابة العلمية، الكمبيوتر أفضل، وللكتابة الأدبية! القلم أفضل.

سألنى زكى سالم: لماذ توقفت مجلة "الانسان والتطور" عن الصدور فصمت، والتقط نعيم صبرى ما أنا فيه، وما قد يعنيه الصمت (وكان قد حضر ثم حضر محمد يحيى)، قال نعيم يبدو أن الحديث له شجون، وقلت للاستاذ: أظن أن مجلة الفرد الواحد (أو الفرد الواحد أساسا) لها عمر افتراضى لابد أن تتوقف فى نهايته، والا فترت، أو تشوهت، من احتمال التكرار، ولم أكن

مقتنعا تماما بما أقول، قال الاستاذ لماذا فعلا توقفت، وقد كانت تمثل وجهة نظر متدفقة، حتى لو لم تكن عملا جماعيا بالشكل العادى؟ قلت له : إنه التمويل فى نهاية النهاية، فقد كان العدد الواحد يكلفنا بضعة مئات من الجنيهات، وكيف أن هذا كان مبلغا باهظا أيامها، وأنها كانت لا تبيع إلا بضع عشرات من الأعداد، كان عادل عزت قد حكى أنه أصبح صاحب مطبعة بالصدفة حين ذهب يطبع ديوان شعر، فعرض عليه صاحب المطبعة أن يشاركه ففعل، ثم كان ما كان، وأعدت حكاية تأليف كتاب السيكوباثولوجى وكيف أننى اشتريت صندوق حروف لإتمام مؤتمر ما، ثم وجدت العامل عندى ليس له عمل بعد أن ترك عمله الأصلى اكراما لى (لينقذ الموقف بعد أن عجزت عن الاتفاق مع أى مطبعة على إنجاز كتيب المؤتمر فى الوقت المناسب) وكان علىّ أن أعطيه 18 صفحة يوميا حتى يجد عملا، فقررت أن أشرح ديوان "سر اللعبة"، فخرج كتاب السيكوباثولوجى الذى أعتبر أهم عمل فى تاريخى، وهو يناهز الألف صفحة، ثم عودة إلى حديث الكمبيوتر، قلت له إن مسألة القص واللصق هذه ليست مفيدة دائما، فأحيانا كثيرة يكون التبييض (بالقلم) إعادة كتابة، وأحيانا يخرج النص بعد التبييض وقد امتلأ بأفكار جديدة تماما تختلف عن الفكرة الأصلية، وهذا ما يعيدنا إلى احترام كتابة المضطر (شريطة أن يكون مبدعا) مطمئنين طول الوقت أنه مهما كان الدافع للكتابة، فإن الناتج مضمون قيمته مادام الكاتب يملك أدوات وقدرات وانطلاقة المبدع، ولكن الكمبيوتر يحرم الكاتب من التبيض بالمعنى الحقيقى فيكتفى عادة بالاحتفاظ بأغلب النص الأول "مع إجراء عملية قص ولصق قد لا تصل بالنص فى صورته النهائية إلى ما كان يعد به

وقلت له إننى سمعت مرة من جمال الغيطانى أنه ينقل بخط يده بعض كتب التراث، ويسمى هذه العملية "القراءة الثقيلة" (قياسا على المدفعية الثقيلة فى الحرب) وأنه بهذه القراءة البطيئة المكتوبه يعايش النص (التراثى خاصة) معايشة عميقة متأملة.

ويقول الاستاذ إنه كان يفعل مثل ذلك صغيرا حين يقرأ "نظرات" مصطفى لطفى المنفلوطى، ذلك أنه كان يكتب مقلدا نظراته هو أيضا على نفس النمط، وربما بنفس الألفاظ، وكان حين يقرأ "أيام" طه حسين، يكتب عن نفسه لنفسه شيئا شبيها بذلك، حتى يذكر عن نفسه أشياء لم تحدث أولا يمكن أن تحدث، مثل أنه ذهب للكتاب فى القرية، وأنه كان يتحسس الأشياء، هكذا يؤكد الأستاذ احتمال تحقيق الفرض الذى أتبناه فى شرحى لبعض جوانب الإبداع من أن المبدع (القاص والممثل خاصة) يتمتعون بشيء أشبه بشخصية "كأن"، ولكن بما يمكن أن يسمى الجانب الإيجابى لها تماما، وهى الشخصية التى تتصف بالقدرة على التقمص اللاشعورى، سواء لكاتب آخر، أو للواقع، والتقمص هنا ليس تقليدا تماما، وإنما هو تمثل كامل "للآخر"، وبشكل لاشعورى أساسا، هذا ما يمكن أن يقع بين المرونة والواقعية الحقيقية.

وعاد الاستاذ يحكى عن قراءاته صغيرا، وكيف كان يتابع بعض ما ينشر مسلسلا فى الإهرام، وأنه كان يواظب على قراءة المختار (ريدرز ديجست) وكان الأخير تدور رواياته تقريبا حول موضوع واحد، وهو بنت الكونت أو اللورد التى أحبت الميكانيكى أو السائق، أو العكس: ابن اللورد (الباشا) الذى أحب بنت الحارة، وكان لا يكف عن تكرار هذه "التيمة".

الخميس 13 / 4 / 1995

كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أنهى هذه الكتابة بعد احتفالية الوسام الفرنسى، لماذا يا ترى ؟

هل فترت أنا؟ هل توصلت إلى معرفة محيطة بهذا الرجل تكفينى بقية حياتى؟ هل ابتعدت عنه قليلا أو كثيرا بعد سفرية سوريا؟ هل خفت من التكرار؟ وهل يا ترى حين أكف عن الكتابة، سوف أبتعد أكثر أم أقترب أكثر؟ الذى أنا متأكد منه هو أن حبى لهذا الرجل سوف يظل هو هو، وأكثر.

اليوم هو أول يوم لى مع الحرافيش بعد عودتى، مررت على توفيق صالح وأحمد مظهر، كانا ينتظران بالشارع الواحد تلو الآخر، برغم وصولى مبكرا، وكانت العاصفة الترابية على أشدها

كان الاستاذ وحده تقريبا فى الشقة، وصلنا مبكرا، تأخرنا فى البيت انتظارا لعربة الحراسة، أحمد مظهر يحكى عن تجربته التطوعيه مع طلبة وطالبات كلية معهد السينما، ويسأل عن إسم مدينة فى فرنسا وهل توجد مدينه اسمها "لورد" مثلا، ذلك لأنه رجح أنها كذلك، فأحكى له أنها قرية صغيرة فى جنوب فرنسا، وأننى زرتها أثناء مسحى هذا البلد الجميل، وأن فيها كنيسة اسطورية بها شهرة دينية خاصة، وهى تزار للتبرك وأنتى شاهدت مئات العصى معلقة لمن ذهبوا إليها مشلولين وعادوا منها سائرين منتصبى القامة، وأن هذا لم يهزنى إطلاقا لأن عندنا فى العيادة الخارجية فى قصر العينى يمكن أجمع مثل هذا العدد وأكثر من العصى ممن يحضرون للعيادة بما يسمى الشلل الهستيرى، ويشفون بجلسة واحدة من خلال الإيحاء، أو التفسير، أو التعويض أو أى إجراء علاجى شديد البساطة يجعل المريض يتكلم بلسانه عن ما كان يقوله بإعاقته، لكن العامة والسمعة والاحتفالية والجو الدينى شىء آخر، لا ارفضه، ولا أصفق له طبعا. وأسأل مظهر عن ما الذى ذكره بها وما المناسبة، فيقول إنها الكلمة التى كانت ناقصه فى حل الكلمات المتقاطعة هذا الصباح، أنا عرفت عن هذا الفارس غرامه بالتاريخ، وباللغة، وبالفن، وكنت أحسب ان اسم هذا البلد خطر له متعلقا بأى من هذا، أو حتى بحكاية صديق أو صديقة زارتها وشفيت، أما أن أفاجأ بعد كل هذا الحكى والشرح أنها كلمة ناقصة من الكلمات المتقاطعة؟ لا يا عم احمد ، وضحكت، ولم أكتم عنه دهشتى، فيوافقنى على متنوع اهتماماته ويأتى اسم "شيلى" فى السياق، ولا أذكر أية تفصيلة دارت حول هذا البلد، لكنها كانت مناقشة مهمة،

ويراهن مظهر توفيق إن نطق إسم "شيلي" نطقا صحيحا وأنه سوف يعطه آلف جنيه إن فعل، ولا أفهم، ويغير توفيق الحديث ويحكى كيف استدعت أم كلثوم رجاء الجداوى، وأن الأخيرة فوجئت بالهجوم الحار الحميم، فأفزعتها المفاجأة، بل المباغته، فحاولت ان تفر هاربة لكن تمت مطاردة طريفة، لا يعرف توفيق كيف انتهت، لكنه سمع بعض ذلك.

صمم توفيق صالح ألا نشترى السودانى هذا اليوم تجنبا للعاصفة، وقبل الاستاذ وهو متضجر ضجرا شديدا، وهو يكرر ليه يا توفيق؟ عادة يا توفيق؟ ليه نقطعها يا توفيق؟ ربنا ما يقطعلكشى عادة يا شيخ!

الليلة عموما الاستاذ ليس منتبها نفس الانتباه الذى اعتدناه، وأنا فى فتورى الانسحابى لا أنكشه، توفيق فتح معه أحاديق بدت لى معادة، مثل الحديث عن ما وصلت إليه مبالغ وطقوس النقطة فى الملاهى الليلية ، وعن لوسى ، وعن الفيلم الذى زعموا أنه سيخرجه لها، (وأظن أننى كنت قد أشرت إلى ماكتبوه عن ذلك، فى مجلة كاريكاتير أول أمس) ثم عن عادل إمام الذى يقبض المليون جنيه نقدا وعدا فى الفيلم الواحد، وكيف أنه لا يطلع إلى خشبة المسرح إلا بعد أن يدخل إليه شقيقه فى الكواليس ويطمئنه على أنه قد قبض نسبته فى الشباك ويريه الشنطة، وعن محمود عبد العزيز ستونم ألفا ويكتب العقد بثلاثين وأحمد زكى 400000 ويكتبه بخمس وعشرين وأسأله: ثم ماذا؟ أين يذهبون بهذه النقود، وحق الدولة ورصف الشوارع وفتح المدارس، ثم كيف يقفون على المسرح أو يمثلون فى السينما دور الانسان المكافح المطحون، وهات يا نقد فى النظام السياسى، وفى الفساد، وفى التهرب الضريبي، إن صحت الأرقام التى تذكرها لنا الآن، فيرد ردودا تبريرية عادية ، بصراحة مقنعة، فهكذا تسير الأمور..

وننتقل إلى شقة توفيق صالح ويعتذر مظهر عن مواصلة السهرة معنا، ويغفوا الأستاذ بعد الأكل عدة مرات وهو جالس، ويقول توفيق: "سيبه يستريح شويه"، ولا أقبل ذلك انشغالا عليه، لكننى أتركه، وحين يفيق من إغفاءته التى طالت حتى انشغلت، أسأله هل شعر الآن أنه ينام وهو جالس، فيقول لى أبدا إنه لم ينم، فأنشغل أكثر، حتى أننى فكرت أنه ربما تكون شكواه من الأرق لها علاقة بهذه الملاحظة، وأقول له ما دار بذهنى، واحتمال أنه ينام لكنه يشعر أنه لا ينام مثلما حدث الآن، فيوافقنى بطيبة ولا يستبعد ذلك، ويقول إنه أحيانا يستنتج أنه نام من الحلم، فمثلا يجد نفسه مستيقظا وكأنه لم ينم، ثم يتلفت حوله سائلا، "لكن أين يوسف السباعى؟ أو أين السحار؟"، وحين لا يجد هذا أو ذاك، يعلم أنه كان يحلم بهما، وأنه استيقظ، وأنه حين افتقدهما أدرك بأثر رجعى - أنه كان نائما، وأن ذلك كان حلما وأتصور أن من أهم معالم تركيب المبدع أن المسافة بين وعى الحلم ووعى اليقظة قليلة، وأن الانتقال من مستوى إلى مستوى يتم

بسهولة، ومرونة، ووفرة ، وأطمئن على نوم الاستاذ قليلا أو كثيرا.

وتمضى الليلة فاترة

أم أننى أنا الذى أصبحت فاترا؟

أو أن هذا القلم هو الذى أصابه الفتور؟